هيروشيما يومية: ماذا يعني سقوط 70 ألف طن من المتفجرات؟

1. المقدمة

شهدت غزة منذ 7 أكتوبر 2023 حملة قصف جوي هي الأعنف في تاريخها الحديث، إلى درجة وُصف معها الدمار اليومي بأنه "هيروشيما يومية". فقد قُدِّر أن إسرائيل أسقطت على القطاع أكثر من 70 ألف طن من القنابل والذخائر خلال أقل من عام – رقم يتجاوز بكثير إجمالي حمولة القنابل التي أسقطت على مدن كبرى في الحرب العالمية الثانية مثل دريسدن وهامبورغ ولندن مجتمعة. يعادل هذا الوزن التدميري نحو ستة أضعاف قنبلة هيروشيما النووية من حيث قوة التفجير، وفق تقديرات خبراء؛ إذ كانت قنبلة هيروشيما تعادل حوالي 12–15 ألف طن من مادة تي إن تي.

هذه المقارنة المفزعة تجعل ما يجري في غزة يتجاوز كونه نزاعًا محليًا محدودًا، ويضعه في مصافّ أكثر حملات القصف تدميرًا في الذاكرة البشرية الحديثة. هذا البحث لا يقتصر على تتبع ما جرى في غزة بوصفه واقعة محلية، بل ينطلق من فرضية أن ما حدث هناك يعكس منعطفًا عالميًا في طبيعة الحروب. فمن المقارنة مع الذاكرة التاريخية، إلى تفكيك بنية السلاح المعاصر، ومن قراءة الخسائر الإنسانية والنفسية، وصولًا إلى استشراف ما قد تحمله "الحروب المفرطة" من مآلات، يسعى البحث إلى الإمساك بخيوط الصورة الكاملة.

إننا أمام حدث يتجاوز حدود الخرائط، ويتجاوز أيضًا قدرة اللغة على الإحاطة به؛ حدث يضع المجتمع الدولي أمام سؤال وجودي: كيف يُكتب التاريخ حين تتكرر "هيروشيما" لا مرة واحدة، بل كل يوم؟

2. مقارنة تاريخية – غزة مقابل الحرب العالمية الثانية

يكشف القياس التاريخي أن كثافة القصف على غزة غير مسبوقة في سجل الحروب بعد الحرب العالمية الثانية. خلال القصف الألماني على لندن (1940–1941) أسقطت قوات المحور حوالي 18,300 طن من القنابل على المدينة، فيما تعرضت هامبورغ لغارات بالحرب العالمية الثانية بلغ مجموعها 8,500 طن تقريبًا في صيف 1943، ودُمّرت دريسدن بحوالي 3,900 طن من القنابل في فبراير 1945. مجموع ما أُلقي على تلك المدن الثلاث مجتمعة يقارب 30 ألف طن. أما في غزة، فقد تجاوزت حمولة القصف الإسرائيلي 70 ألف طن خلال الأشهر الستة الأولى فقط من الحرب على القطاع، وفقًا لمرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان. هذا يعني أن غزة، تلك الشريط الضيق من الأرض (365 كم² فقط)، تلقت في بضعة أشهر ضعف ما تلقته كبرى مدن أوروبا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية من حيث وزن المتفجرات (AA, 2024).

هذه المفارقة التاريخية تبرز أكثر عند أخذ مساحة غزة وعدد سكانها بالحسبان. فبينما كانت لندن وهامبورغ مدنًا مترامية الأطراف بملايين السكان، فإن قطاع غزة مكتظ بحوالي 2.3 مليون نسمة ضمن رقعة صغيرة. ورغم ذلك، تجاوز دمار غزة نسبة الدمار في تلك المدن التاريخية. تُظهر صور الأقمار الصناعية أن ما لا يقل عن 69% من مباني غزة تعرضت للتدمير أو الضرر بحلول ربيع

2024 (Wikipedia, 2024). وبحلول أغسطس 2024، قدّرت الأمم المتحدة أن 80% من المباني في شمال غزة إمّا تضررت أو سُوّيت بالأرض – وهي نسبة مذهلة تضع غزة في مصافّ أكثر المناطق تدميرًا في التاريخ العسكري الحديث.

إن هذه الأرقام المهولة تنقل حرب غزة من إطارها المحلي إلى الذاكرة العالمية للحروب الكارثية. كما صارت دريسدن رمزًا لما يمكن أن تفعله بضع آلاف من أطنان القنابل بمدينة ثقافية عريقة، ستصبح غزة رمزًا لمآلات حرب غير متكافئة استُخدم فيها سلاح الجو الحديث بكثافة غير معهودة. يقول الباحث روبرت بيب (أستاذ بجامعة شيكاغو) معلّقًا على هذه الحقيقة: "ستُذكر غزة أيضًا كاسم مكان يدل على إحدى أثقل حملات القصف التقليدي في التاريخ. وبالمثل، وصف وال ستريت جورنال ما جرى بأنه "أشد تدمير شهدته حرب حضرية في التاريخ الحديث" (Wikipedia, 2024).

إن حربًا يناهز قصفها الإجمالي قوة عدة قنابل ذرية لم تعد حدثًا عابرًا في نزاع إقليمي، بل باتت فصلًا مأساويًا يُدرَّس ضمن تاريخ الحروب الكبرى، وسيظل حاضرًا في الذاكرة الجمعية العالمية لعقود قادمة.

3. البعد العسكري – طبيعة الذخائر الحديثة

3.1 تطور الأسلحة من "القنابل العمياء" إلى "الذخائر الذكية"

شهدت التكنولوجيا العسكرية تطورًا جذريًا منذ أربعينيات القرن الماضي؛ فخلال الحرب العالمية الثانية كانت القاذفات تُسقط قنابل غير موجهة ("عمياء") بكميات هائلة على أمل إصابة الأهداف. أدى ذلك إلى تدمير مناطق شاسعة عشوائيًا لتحقيق غاية تكتيكية واحدة، كما حصل في قصف دريسدن وهيروشيما. في المقابل، تدخلت الذخائر الحديثة الصنع في القرن الحادي والعشرين بوعد تحقيق "القصف الجراحي الدقيق" عبر القنابل الموجهة بالليزر أو نظام تحديد المواقع (GPS). ففي الترسانة الإسرائيلية اليوم قنابل ذكية مثل قنابل JDAM الموجهة بالأقمار الصناعية وقنابل GBU-28 الخارقة للتحصينات، والتي يفترض أن تقلل الأضرار الجانبية عبر إصابة الهدف بدقة (Daily Sabah, 2024).

على أرض الواقع في غزة، كانت الصورة أكثر تعقيدًا؛ إذ على الرغم من امتلاك إسرائيل هذا المخزون المتطور، كشفت تقارير أمريكية أن نحو 40–50% من القنابل التي أُلقيت على غزة كانت غير موجهة أو ما يُعرف بـ"القنابل الغبية" (Daily Sabah, 2024; Wikipedia, 2024). هذا يعني أن الجيش الإسرائيلي جمع بين أحدث التكنولوجيا وأسلوب القصف العشوائي القديم لتحقيق أقصى أثر تدميري. بالفعل، صرّح المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي داني حلوتس في أكتوبر 2023 أنهم "يركّزون حاليًا على إيقاع أقصى ضرر" حتى لو جاء ذلك على حساب الدقة (Wikipedia, 2024)، مما يعكس استراتيجية أقرب إلى القصف الشامل (Carpet Bombing) منه إلى القصف الدقيق.

3.2 الكثافة النارية الحديثة ومعادلة الدقة والتدمير

إن 70 ألف طن في 2024 ليست كـ70 ألف طن في 1945 – فكل طن حديث يضاعف أثر التدمير بعدة مرات. هناك عدة عوامل وراء ذلك: أولا، فاعلية المتفجرات أصبحت أكبر. القنابل الحديثة تحوي مواد شديدة الانفجار (مثل Tritonal) تفوق قوة مكافئها الوزني من مادة TNT التقليدية التي كانت معيار قياس القوة التدميرية في الماضي (University of Bradford, 2024). ثانيا،

حجم الذخيرة الفردية ازداد. خلال حرب غزة استُخدمت قنابل ضخمة بوزن 2000 رطل (حوالي 907 كجم) للقنبلة الواحدة (Daily Sabah, 2024)، بينما كانت غالبية قنابل الحرب العالمية الثانية أخف بكثير (500 أو 1000 رطل غالبًا).

اليوم بإمكان طائرة واحدة أن تلقي قنبلة بحجم يقارب قنبلة "جراند سلام" الأسطورية في 1945، لكن بتوجيه دقيق يجعلها تصيب بناية فتمحوها بالكامل. وقد وثّقت منظمات حقوقية اعتماد إسرائيل المكثّف لهذه القنابل الثقيلة ذات الصواعق المؤخَّرة، مما يؤدي إلى "تسوية البنايات بالأرض" عبر تفجير أسسها وتحويلها إلى أنقاض. وصف أحد المحققين في جرائم الحرب أثر قنبلة موجهة من طراز JDAM بقوله إنها "تحوّل الأرض إلى سائل" من شدة القوة التفجيرية، وهذا بالضبط ما حدث في أحياء غزة المكتظة حيث انهارت العمارات على رؤوس ساكنيها (Wikipedia, 2024).

إلى جانب ذلك، فإن الكثافة النيرانية لحملة القصف الحديثة تزيد من فتك كل طن متفجرات. أسقطت إسرائيل نحو 45 ألف قنبلة وصاروخ في غزة خلال الشهور الثلاثة الأولى وحدها من الحرب (Wikipedia, 2024) – وهو رقم ضخم يشير إلى وتيرة إسقاط عالي جدًا للقنابل لم يشهدها مسرح حرب حضرية من قبل. هذه الوتيرة تعني أن الأهداف المحددة وغير المحددة تلقت وابلًا متواصلًا لم يمنح السكان أو البنى التحتية أي فرصة لالتقاط الأنفاس. ولعل أبلغ دليل على هذه الكثافة غير المسبوقة تصريح رامي عبده (رئيس المرصد الأورومتوسطي) بأن "هناك أحياء وبلدات مُسحت بالكامل، كما حدث في بيت حانون، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بكثافة نارية كبيرة لم تتوقف". كما أشار عبده إلى أن إسرائيل استنزفت مخزونها من الذخائر إلى حد العجز، واضطرت لطلب إمدادات ضخمة إضافية من الولايات المتحدة ودول أخرى خلال الحرب (Al Jazeera, 2024) – في تكرار لسيناريو حملات القصف الكبرى في التاريخ لكن بأدوات أشد فتكًا.

إذًا، امتزاج التكنولوجيا الدقيقة مع النهم التدميري خلق معادلة جديدة: حتى عند استعمال الأسلحة "الذكية"، يمكن للقوة النارية المفرطة أن تحقق دمارًا شاملًا يفوق بمراحل ما عرفناه في منتصف القرن العشرين. المحصلة هي أن كل طن من المتفجرات الحديثة في غزة ترجمته آلة الحرب إلى خراب أعظم وتأثير أشد على حياة البشر والعمران مما كان عليه الأمر قبل 80 عامًا.

4. الانعكاس الإنساني – كارثة بمقياس إبادة

خلفت الـ70 ألف طن من القنابل واقعًا إنسانيًا كارثيًا في غزة يوازي مقاييس الإبادة الجماعية. الأرقام هنا ليست مجرد إحصاءات باردة، بل تعكس مأساة إنسانية هائلة: فقد أدى القصف الإسرائيلي المكثف إلى استشهاد عشرات الآلاف من الفلسطينيين خلال أقل من عام. تشير أحدث التقديرات (أغسطس 2025) إلى مقتل نحو 61,500 فلسطيني وإصابة أكثر من 150 ألف آخرين منذ بدء الحرب (Al Jazeera, 2025). هذه الحصيلة المروعة تعني أن حوالي 2.5% من سكان قطاع غزة قضوا خلال سنة واحدة فقط من العمليات العسكرية – أي زهاء واحد من كل 40 شخصًا من السكان قُتل مباشرة بالقصف. وقد قدّرت دراسة مستقلة نشرتها مجلة ذا لانسيت الطبية أن عدد قتلى الغارات حتى نهاية يونيو 2024 كان 64,260 شخصًا، أي أعلى بحوالي 40% من الأرقام الرسمية المعلنة آنذاك. مثّل هؤلاء الشهداء نحو 2.9% من سكان غزة وقتها (قرابة شخص واحد من كل 35)، وكان قرابة 60% منهم من النساء والأطفال وكبار السن – وهي فئات يفترض أنها مدنية محمية في أي نزاع (The Guardian, 2024).

هذه النسبة من الخسائر البشرية ضمن السكان تقارب أو تتجاوز ما شهدته أعتى حملات القصف في الحرب العالمية الثانية. فعلى سبيل المقارنة، قُتل حوالي 40 ألف مدني بريطاني في قصف لندن (أي أقل من 0.5% من سكانها آنذاك)، فيما أدت حملة قصف

هامبورغ 1943 إلى مقتل نحو 37 ألف شخص (حوالي 2% من سكان المدينة). أما غزة فقد تجاوزت النسبة فيها 2.5% من السكان قتلى خلال شهور معدودة – رقم يماثل معدلات الإبادة الجزئية لشعب أعزل.

وراء كل رقم في سجل الضحايا حكاية لعائلة أبيدت أو منزل سوي بالأرض. وثّقت المصادر الفلسطينية والدولية حالات "أسر بأكملها مُحيت من السجل المدني" نتيجة القصف. حتى أكتوبر 2024، بلغ عدد العائلات التي قُتل جميع أفرادها في الحرب 902 عائلة فلسطينية على الأقل (Al Jazeera, 2024a). نحن نتحدث عن مئات الأسر التي فقدت كل صغير وكبير فيها ولم يبق أحد يحمل اسمها. وإضافة لذلك، سُجّل أن 1,364 عائلة فقدت كل أفرادها ما عدا شخص واحد بقي على قيد الحياة، كما تقلصت 3,472 عائلة أخرى إلى فردين فقط ناجيين (Al Jazeera, 2024a). هذه الأرقام المرعبة تكشف أن ضربات القصف لم تميّز بين هدف عسكري ومدني، بل كثيرًا ما أصابت بيوتًا مكتظة لتحولها في لحظات إلى مقابر جماعية لعائلات بأكملها.

أحد الأمثلة المروعة كان قصف منزل عائلة الأسطل في خان يونس بتاريخ 26 أكتوبر 2023، والذي أسفر عن مقتل 38 فردًا من العائلة عبر ثلاثة أجيال في ضربة جوية واحدة. كما فقدت عائلة النجار 18 من أفرادها في ضربة واحدة على دير البلح (Al Jazeera, 2024c). إن مشاهد المنازل المدمرة على رؤوس ساكنيها تكررت آلاف المرات، لتترك في كل حي شهداء من نفس الكنية يصلون للعشرات. لقد قصف الاحتلال أحياء بكاملها كحي الشجاعية وبيت حانون وجعلهما أطلالًا بلا حياة، حيث تجد عائلات كاملة مُسجلة في عداد الموتى.

وبحلول يناير 2025، قُدر أنه تم تدمير 70% من البنية التحتية والطرق والمباني في القطاع (Al Jazeera, 2025a)، إلى جانب دمار كلي أو جزئي لآلاف المنازل السكنية. هذا الخراب العمراني الواسع يعني تشريد مئات الآلاف من السكان. وقد حذرت الأمم المتحدة أنه عند انتهاء الحرب سيصبح "نصف عائلات غزة بلا مأوى" نتيجة تسوية بيوتها بالأرض (Wikipedia, 2024a). بالفعل، تجاوز عدد النازحين داخليًا مليون ونصف المليون إنسان في ذروة القتال – كثير منهم نزحوا عدة مرات متنقلين بين المدارس والمستشفيات التي لم تسلم هي الأخرى من القصف.

5. الأثر النفسي والجماعي – وعي تحت الركام

في غزة، لم تعد مشاهد الدمار والاستهداف اليومي صدمات عابرة، بل تحولت إلى واقع يومي يطبع وعي الجيل الناشئ. لقد وُلد مئات الآلاف من أطفال غزة في كنف حصار خانق وحروب دورية قبل 2023، وجاءت الحرب الأخيرة لتكون أضخم فصول العنف في حياتهم. هؤلاء الأطفال لم يعرفوا حياة طبيعية آمنة؛ فحتى قبل النزاع الحالي أظهرت دراسة في 2020 أن نحو 53% من أطفال غزة يعانون اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) نتيجة تجاربهم السابقة (The Lancet, 2020). أما خلال الحرب الأخيرة، فالوضع النفسي أشد قتامة بكثير: وجدت دراسة ميدانية بدعم منظمة وور تشايلد (War Child) أن 96% من الأطفال الذين تمت مقابلتهم يعتقدون أن موتهم وشيك في أي لحظة. نصف هؤلاء الأطفال تقريبًا أصبح لديهم قناعة بأنهم سيموتون بسبب هذه الحرب (War Child, 2024b).

بالإضافة إلى ذلك، تسببت الحرب في تفتيت النسيج الأسري والاجتماعي الذي يشكل شبكة الأمان النفسية للأطفال. تشير إحصاءات أكتوبر 2024 إلى أن أكثر من 17,000 طفل في غزة فقدوا أحد الوالدين أو كليهما بسبب الحرب (Al Jazeera, 2024a).

هؤلاء اليتامى الصغار يحملون في ذاكرتهم صورًا لا تمحى لفقد عائلاتهم ولحظات وداع مريرة تحت القصف. وعندما يدرك الطفل أن مدرسته ومستشفاه ومسجده وحتى ملاعبه قد طالتها الصواريخ، فإن إحساسه بالأمان الوجودي يتلاشى.

إن الأرقام المهولة لضحايا وخراب حرب غزة لن تبقى حبرًا على ورق التقارير الدولية، بل ستتحول إلى جزء من الذاكرة الجمعية الفلسطينية والعربية وربما العالمية. كل طفل شاهد والده مدفونًا تحت الركام، وكل أم انتشلت جثة صغيرها، وكل أب حمل ابنته الشهيدة بين يديه – كل هؤلاء سيحملون ندوبًا نفسية دائمة ستشكل وجدان هذا الشعب لسنوات طويلة قادمة. ستصبح إحصاءات مثل "استشهاد 116 شخصًا في اليوم وسطياً خلال العام الأول من الحرب" (Al Jazeera, 2024b) أرقامًا محفورة في ذاكرة الجيل؛ فالطفل الذي ترعرع وهو يسمع أن 115 شخصًا يُقتلون كل يوم في بلده (منهم 46 طفلًا و31 امرأة في المتوسط يوميًا) (Al Jazeera, 2024c) لن يتشكل وعيه كسائر أطفال العالم.

سيُذكر هذا الجيل بأسماء المجازر كما يذكر غيره أسماء الأعياد، وسيعدّ تواريخ سقوط آلاف القنابل كما يعد غيره تواريخ المناسبات. لقد أصبحت مأساة غزة مرجعًا وجدانيًا لهذا الجيل تمامًا مثلما بقيت هيروشيما وناغازاكي جرحًا نازفًا في الوعي الياباني الجماعي. ومن المرجح أن "70 ألف طن" لن تبقى مجرد رقم، بل شعارًا يختزل قصة صمود ومعاناة سيخلّدها التاريخ. بل إن أحد الأكاديميين وصف غزة بأنها ستغدو مثالًا لما أسماه "قتل الموطن" (Domicide) – أي التدمير الممنهج لمساكن الناس وحياتهم المدنية – ما يستوجب إدراج ذلك كمصطلح جديد في القانون الدولي الإنساني (Wikipedia, 2024).

إن معايشة الدمار يومًا بيوم حولت صدمة الحرب في غزة إلى ذاكرة جمعية حيّة تشكل هوية الشعب هناك؛ فكل فرد يحمل نصيبه من الألم والرعب، وكل رقم ضحية أو بيت مدمّر يمثل وجهًا وقصة أصبحت الآن جزءًا من قصة مجتمع بأسره.

6. المستقبل – حرب غزة كنموذج

6.1 ولادة مفهوم "الحروب المفرطة" كثقافة قتالية جديدة

كشفت حرب غزة 2023–2024 عن نمط حربي جديد قد نطلق عليه اسم "الحرب المفرطة" أو "الحرب بالصدمة والترويع القصوى". هذا النموذج يتجاوز أهداف الحروب التقليدية (كهزيمة العدو عسكريًا أو احتلال أرضه) ليصبح هدفه تحقيق انهيار شامل لمقومات الحياة في أرض العدو. في حالة غزة، لم تكتفِ إسرائيل بهدف تحييد قوة حماس العسكرية، بل سعت – وفق كثير من المحللين – إلى إعادة تشكيل المكان والزمان في غزة: أي جعل القطاع مكانًا غير قابل للحياة بشكل مؤقت أو ربما طويل الأمد. تجلّى ذلك في مستوى التدمير الهائل للبنية التحتية المدنية (منازل، طرق، شبكات مياه وكهرباء) بما أعاد الوضع التنموي في غزة عقودًا للوراء. قدّر تقرير للأمم المتحدة أن عمليات الجيش الإسرائيلي أعادت مستويات معيشة غزة 70 سنة إلى الخلف (Wikipedia, 2024b)، وهي نتيجة تصعب مقارنتها إلا بحروب الإبادة الشاملة في التاريخ.

إن استخدام قوة نارية تعادل قارات – كما وصفها أحد الكتاب – على بقعة جغرافية صغيرة ومحاصرة، قد يؤسس لسابقة خطيرة في ثقافة الحروب القادمة. فالدول ذات التفوق العسكري الكاسح ربما تنظر إلى ما حدث في غزة كدليل على إمكانية حسم الصراعات بسرعة عبر تدمير كل شيء دون الحاجة لغزو بري طويل أو احتلال مكلف. إنه مفهوم "الأرض المحروقة" بأقصى تجلياته التقنية: حروب لا تُبقي ولا تذر، تسعى إلى محو البيئة الحاضنة للعدو نفسيًا وماديًا، وليس مجرد هزيمة قواته عسكريًا.

بيد أن هذا النموذج نفسه يثير أسئلة أخلاقية وإنسانية غير مسبوقة، ويضع العالم أمام تحدٍّ: هل سنسمح بأن يصبح ما حدث في غزة نموذجًا مقبولًا أو متكررًا؟ إذا لم يعقب هذه الحرب صحوة ضمير وقانون، يخشى مراقبون أن تُستساغ "الحروب المفرطة" كخيار لدى بعض القوى في نزاعات مستقبلية. ومما يعزز هذا التخوف أن بعض العسكريين حول العالم ربما يحللون الدروس المستفادة من غزة كما يحللون معارك الحرب العالمية، أي من منظور تكتيكي بحت بغض النظر عن الكلفة الإنسانية. فمثلاً، قد يخرج البعض باستنتاج أن تدمير المدن بالكامل قد ينجح في كسر إرادة خصم محصن – كما يُستشهد أحيانًا بدروس دريسدن أو هيروشيما في كسر إرادة دول المحور. والخطر هنا أن تنزلق المعايير الأخلاقية أكثر إذا لم يجرِ وضع حدود واضحة.

6.2 إعادة صياغة القوانين الدولية وحدود الشرعية الحربية

شكّلت حرب غزة جرس إنذار فيما يتعلق بفعالية وهيبة القانون الدولي الإنساني. فإذا اعتُبرت هذه الكارثة بكل فظائعها ضمن "المسموح به" دوليًا أو مرّت بلا عقاب، فالسؤال المرعب سيكون: ما الذي لم يعد محرّمًا بعد اليوم؟ هل بات إلقاء 70 ألف طن من القنابل على منطقة سكانية كثيفة خلال عام أمرًا يمكن تبريره قانونيًا؟ إن لم يكن هذا خرقًا للقانون الدولي ولروح اتفاقيات جنيف، فما الذي سيكون خرقًا إذن؟! لقد دفع هذا التساؤل بعض الخبراء للدعوة إلى إعادة تقييم قواعد الحرب وقوانينها. فالقانون الدولي قائم نظريًا؛ إذ تحظر مواثيق جنيف بوضوح استهداف المدنيين أو استخدام العقاب الجماعي أو الهجمات غير المتناسبة (Arab Center Washington DC, 2024). لكن المشكلة كانت في إنفاذ هذه القواعد.

من هنا ظهرت مطالبات بتطوير القانون نحو مزيد من الصرامة والوضوح. أحد المقترحات التي طرحها مختصون بالأمم المتحدة هو تصنيف التدمير الشامل للمساكن والأحياء (Domicide) كجريمة حرب مستقلة (Wikipedia, 2024c) تستوجب محاسبة فورية. كذلك يُثار نقاش حول ضرورة تعديل مفهوم "التناسب" ليصبح أكثر كميةً: كأن يتم تحديد عتبات رقمية أو نسب مئوية – من حجم دمار أو عدد ضحايا مدنيين – يعتبر تجاوزها دليلًا على جريمة حرب تلقائيًا. فاليوم يترك مفهوم التناسب لتقدير ذاتي من قبل الأطراف المتحاربة أو لاحقًا للقضاة، مما يسمح بجدل واسع؛ أما عند وضع خطوط حمراء كمية (مثل: أي عملية تقتل أكثر من نسبة X% من سكان منطقة ما تعتبر غير قانونية) فقد يصعب على مرتكبي المجازر الإفلات بحجة التفسيرات.

بطبيعة الحال، تبقى المشكلة الأكبر هي الإرادة السياسية لتطبيق القانون. فحرب غزة أبرزت أن القانون بدون آليات ردع صارمة يفقد معناه. لقد أظهرت دول غربية حماسًا في ملاحقة روسيا على جرائم حرب محتملة في أوكرانيا، حيث أصدرت المحكمة الجنائية الدولية مذكرات توقيف خلال أسابيع ضد مسؤولين روس (Arab Center Washington DC, 2024d)، بينما لم يحصل شيء مماثل تجاه جرائم موثقة في غزة رغم أعداد الضحايا المضاعفة. هذا الكيل بمكيالين قوّض الثقة بجدوى القانون لدى كثيرين. لكن في الوقت نفسه، دفعت فظائع الحرب العديد من الدول والمنظمات للمطالبة بإصلاح هذا الخلل. شهدت أروقة محكمة العدل الدولية تحركات غير مسبوقة من أجل غزة، وانضمت عشرات الدول إلى دعاوى قانونية تدين ما حصل (Arab Center Washington DC, 2024e; Arab Center Washington DC, 2024f).

ويمكن القول إن غزة أرغمت العالم على إعادة طرح سؤال جوهري: هل لا يزال للقانون الدولي مكان في زمن "الحروب المفرطة"؟. الإجابة ستحددها أفعال المجتمع الدولي في المرحلة القادمة. إن تم إقرار عدم شرعية ما جرى عبر تحقيقات وملاحقات جدية، فقد يكون ذلك طوق نجاة لمبدأ حماية المدنيين في الحروب. أما إذا سادت حالة "عفا الله عما سلف"، فسيكون ذلك إيذانًا بحقبة مظلمة

تُختبر فيها حدود الوحشية بشكل أخطر. وكما خلُص تعليق لأحد مراكز الأبحاث: "القانون الدولي لن يستعيد هيبته ما لم يُرغم الأقوياء على الالتزام به حتى عندما يتعلق الأمر بحلفائهم" (Arab Center Washington DC, 2024).

7. الخاتمة

إن ما جرى في غزة خلال حرب 2023–2024 لم يكن مجرد فصل عابر من النزاعات الإقليمية، بل تجربة استثنائية أعادت صياغة مقاييس الحرب في الذاكرة البشرية الحديثة. فالرقم "70 ألف طن" لم يعد مجرد دلالة على حجم الذخائر المستخدمة، بل أصبح رمزًا لمرحلة جديدة من العنف المسلح الذي يتجاوز منطق المعركة إلى منطق الإبادة الممنهجة، ويختبر في الوقت ذاته حدود قدرة القانون الدولي على الصمود أمام شريعة القوة.

لقد أظهرت هذه الحرب أن المقارنات التاريخية لم تعد تقتصر على الماضي البعيد، بل باتت غزة تقف جنبًا إلى جنب مع دريسدن وهيروشيما كأيقونات مأساوية تفضح قدرة السلاح على إعادة تشكيل المكان والإنسان في آن واحد. كما كشفت أن التطور التكنولوجي في السلاح لم يفضِ بالضرورة إلى تقليل المعاناة البشرية، بل ربما ضاعف من شدتها حين اندمجت الدقة التقنية مع الإفراط في التدمير. وفي الميدان الإنساني والنفسي، تحولت البيوت المهدمة والأطفال المحاصرين تحت الركام إلى شاهد حي على معاناة جماعية ستظل محفورة في ذاكرة الأجيال القادمة.

على المستوى السياسي، جعلت هذه الحرب المجتمع الدولي أمام امتحان عسير: إما أن يواجه مسؤوليته في إعادة الاعتبار للقانون الدولي، أو يترك الباب مفتوحًا أمام عصر "الحروب المفرطة" حيث تختفي الخطوط الحمراء. ومن ثم فإن غزة لا تمثل مجرد مأساة محلية، بل جرس إنذار عالمي ينبه إلى مخاطر الانزلاق نحو نموذج حربي بلا حدود أخلاقية أو إنسانية.

إن خاتمة هذه الورقة لا تكتفي بإدانة ما حدث، بل تدعو إلى تحويل المأساة إلى درس قاسٍ يفتح الطريق نحو إعادة التفكير في منظومة الردع الدولية، وتجديد الالتزام بمبادئ العدالة والإنسانية. فإما أن يُسجَّل هذا الحدث كوصمة عار في سجل البشرية، أو أن يتحول إلى نقطة انطلاق لإصلاح عميق يقي العالم من تكرار "هيروشيما يومية" في أي مكان آخر.

المراجع:

AA. (2024, April 8). Euro-Med Monitor: Israel dropped 70,000 tons of explosives on Gaza. Anadolu Agency. https://www.aa.com.tr

AA. (2024, Dec 12). Gaza bombardment reshapes demography: buffer zones and massive displacement. Anadolu Agency. https://www.aa.com.tr

Al Jazeera. (2024, May 15). Euro-Med Monitor: Entire neighborhoods in Gaza wiped out by Israeli bombardment. Al Jazeera. https://www.aljazeera.net

METRO
for Knowledge

Al Jazeera. (2024a, Oct 15). Entire families wiped out in Gaza war. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2024a, Oct 30). 17,000 Gaza children orphaned in war. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2024b, Oct 26). Airstrike kills 38 members of al-Astal family in Khan Younis. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2024b, Dec 12). Average of 116 killed per day in Gaza war. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2024c, Nov 4). Najjar family loses 18 members in Israeli strike on Deir al-Balah. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2024c, Dec 12). War toll in Gaza: 46 children and 31 women killed daily. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2024d, Nov 20). Death toll mounts as Gaza neighborhoods flattened. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

METRO
for Knowledge

Al Jazeera. (2024e, Dec 2). UN warns Gaza becoming a graveyard for children. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2025a, Jan 12). 70% of Gaza infrastructure destroyed by bombardment. Al Jazeera. https://www.aljazeera.com

Arab Center Washington DC. (2024, Sep). Displacement crisis in Gaza: over 1.7 million internally displaced. Arab Center Washington DC. https://www.arabcenterdc.org

Daily Sabah. (2024, March 20). Israel's use of smart and unguided bombs in Gaza war. Daily Sabah. https://www.dailysabah.com

HHR Journal. (2024, Nov). Continuous trauma: The Gaza case. Harvard Human Rights Journal. https://hhrjournal.org

HHR Journal. (2024, Nov). Genocide allegations in Gaza war. Harvard Human Rights Journal. https://hhrjournal.org

OHCHR. (2024, Nov 10). UN Secretary-General condemns indiscriminate attacks in Gaza. Office of the High Commissioner for Human Rights. https://www.ohchr.org

The Guardian. (2024a, Jul 25). Lancet study: Gaza death toll may be 64,000. The Guardian. https://www.theguardian.com

The Guardian. (2024b, Jul 25). Gaza fatalities far exceed official numbers, study says. The Guardian. https://www.theguardian.com

The Guardian. (2024c, Jul 25). 60% of Gaza war dead are women, children, elderly. The Guardian. https://www.theguardian.com

The Guardian. (2024d, Jul 25). Civilian toll in Gaza war comparable to WWII bombing. The Guardian. https://www.theguardian.com

The Lancet. (2020). Prevalence of PTSD among Gaza children under blockade and wars. The Lancet. https://www.thelancet.com

University of Bradford. (2024). Expert commentary on Gaza bombardment compared to WWII. University of Bradford. https://www.bradford.ac.uk

War Child. (2024a). 96% of Gaza children fear imminent death. War Child. https://www.warchild.net

War Child. (2024b). Half of Gaza children believe they will die in the war. War Child. https://www.warchild.net

War Child. (2024c). Children's nightmares and trauma symptoms in Gaza war. War Child. https://www.warchild.net

War Child. (2024d). Gaza parents report aggression and regression in children. War Child. https://www.warchild.net

War Child. (2024e). No safe place for children in Gaza. War Child. https://www.warchild.net

War Child. (2024f). 80% of Gaza parents say children lost hope for future. War Child. https://www.warchild.net

War Child. (2024g). 88% of Gaza families displaced multiple times. War Child. https://www.warchild.net

Wikipedia. (2024). Bombing of Gaza (2023–2024). In Wikipedia. https://en.wikipedia.org

Wikipedia. (2024a). Bombing of Gaza (2023–2024). In Wikipedia. https://en.wikipedia.org

Wikipedia. (2024b). Urban destruction in Gaza compared to WWII cities. In Wikipedia. https://en.wikipedia.org

Wikipedia. (2024). Domicide and urban destruction in Gaza. In Wikipedia. https://en.wikipedia.org